نقد الشعر عند العرب

نقد الشعر هو النظر فيه لتمييز جيده من رديئه على نحو نقد الدراهم. ويدخل في النقد اختيار الشعر وتفضيل بعض الشعراء على بعض لأن فيهما تمييزاً لجيد الشعر من رديئه وذلك بيّن في الاختيار اما في التفضيل بين شاعر وآخر فلأنهُ الحكم بأن احدهما اجود شعراً من الآخر فيكون فيه التمييز الذي هو قوام النقد والموازنة بين شاعر وآخر يقتضي التمييز بين شعريهما. اما فضل النقد فهو عظيم جداً فانهُ يحفز العلوم الى التقدم ويسير بها في طريق الكمال ويثقف كعوبها ويني عيوبها. والنقاد هم حماة بيضتها والذابون عن شرعتها ان يردها غير اهلها وعن انسابها ان يتحلى بعقودها غير ابنائها ويصدق على النقاد الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم (يحمل هذا العلم من كل خلف عدولهُ ينفون عنهُ تحريف الغالين وانتحال المبطلين) او كما قال

وقد عرف السلف للنقد فضله ومزيتهُ وحسن اثره في العلوم وعرفوا ان الخوف من سياسته والرهب من قوارضه مما يحذر من الخطل ويبعث على الاحسان

واذكر ان ابا هلال العسكري قال في كتابه الصناعتين بعد ان بيّن خطأ بعض الشعراء المتقدمين: « والذي اوقعهم (يعني المتقدمين) في مثل هذا الخطأ قلة النقد وعدم المؤاخذه » او قال ما هذا معناه

ولما كان النقد مميز الحسن من القبيح كما اسلفنا اضطر علماء نقد الشعر ان يضعوا كتباً ليبينوا فيها محاسن الشعر من مساويه ليكون ذلك قسطاساً للنقد ومعياراً لهُ فاثمرت تلك الكتب ثمرة اخرى غير النقد وهو تعليم صنعة الشعر وتذليل سبلها

﴿ تاريخ النقد واطواره ﴾ لم يرو لنا من نقد الشعر قبل الاسلام الا النزر اليسير. من ذلك نقد النابغة لحسان رضي الله عنهُ ان صح فقد زعم بعض رواة الاخبار ان النابغة نقد حسان في قوله

لنا الجفنات الغرُّ يلمعن في الضحى واسيافنا يقطرن من نجدةٍ دما

فقال لهُ لو قلت في الدجى مكان في الضحى لكان احسن لان كل شيء يلمع في الضحى ولو قلت يجرين مكان يقطرن لكان احسن لان الجري اكثر من القطر

وقد رد قدامة ابن جعفر هذا النقد في كتابهِ نقد الشعر فقال : « واما قول النابغة في يلمعن بالضحى وانهُ لو قال يلمعن بالدجى لكان احسن من قولهِ في الضحى لان كل شيء يلمع بالضحى فهذا خلاف الحق وعكس الواجب لانهُ ليس يكاد يلمع من الاشياء بالنهار الا الساطع النور الشديد الضياء فأما الليل فاكثر الاشياء مما لهُ ادنى نور وايسر بصيص يلمع فيهِ فمن ذلك الكواكب وهي بارزة لنا مقابلة لابصارنا دائماً تلمع بالليل ويقل لمعانها بالنهار حتى تخفى وكذلك السرج والمصابيح ينقص نورها كلما اضحى النهار وفي الليل تلمع عيون السباع لشدة بصيصها وكذلك اليراع حتى تخال ناراً . فاما قول النابغة او من قال ان قولهُ في السيوف يجرين خير من قولهِ يقطرن لان الجري اكثر من القطر فلم يرد حسان الكثرة وانما ذهب الى ما يلفظ بهِ الناس ويعتادونهُ من وصف الشجاع الباسل والبطل الفاتك بأن يقولوا سيفهُ يقطر دماً ولم يسمع سيفهُ يجري دماً ولعلهُ لو قال يجرين دماً لخرج عن المألوف المعروف من وصف الشجاع بالنجدة الى ما لم تجر عادة العرب بوصفهِ » انتهى قول قدامة

اما انا ففي ريب من صحة هذا الخبر فان المناقشة في الالفاظ والتشدد فيها والتنطع لم تظهر الا في آخر الزمان . وهذا النقد بسبيل المتأخرين اشبه والى مناحيهم اقرب وقد زاد بعض الرواة ان النابغة نقد حسان في قولهِ الجفنات والاسياف فقال لهُ قللت جفانك واسيافك كأن النابغة اطلع على الخلاف الواقع بين النحاة في جمع المؤنث السالم هل هو جمع قلة او كثرة وترجح عندهُ انهُ جمع قلة لانهُ قيل انهُ مذهب سيبويه وحفظ قول ابن مالك في الفيتهِ

افعلة افعل ثم فعله ثمت افعال جموع قلة

وهذه الزيادة تزيدنا ارتياباً في صحة الخبر وتنادي ان ابا عذرتها بعض كذبة النحاة

ومن العجيب ان ابن الانباري استشهد بقول حسان على ان جمع المؤنث ربما كان للكثير

ومثل هذه الاكذوبة ما روي انهُ لما نزل قوله تعالى « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون » وسمع بها بعض المشركين ذهب الى النبي صلى الله عليهِ وسلم معترضاً مجادلاً وقال لهُ ان عيسى بن مريم يعبدهُ قوم من النصارى فهل تزعم يا محمد انهُ حصب جهنم فقال لهُ النبي صلى الله عليهِ وسلم ما اجهلك بلغة

قولك. ما (لا يعقل) فما احق واضح هذه الكذبة واجهلهُ فان (ما) تطلق على ما يعقل في ضمن ما لا يعقل كما في قولهِ تعالى سَبَّح لله ما في السماوات وما في الارض فهل يخفى ذلك على المعترض وهو من فصحاء العرب وهل يخفى ذلك على النبي صلى الله عليهِ وسلم فيجيبهُ خطأ

ولذلك كان الجواب على هذا الاعتراض ما رواه الثقات من نزول قولهِ تعالى (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون) الخ

ومثل هذه الاكاذيب كثير من وضع النحاة واللغويين والرواة من ذوي الاغراض . وتميز الصدق من الكذب والحق من الباطل لا يصعب على الناقد البصير الذي خبر ما كان عليهِ كل اهل عصر وعرف عوائد كل جيل

اما النقد بعد ظهور الاسلام فيمكننا ان نتكلم فيهِ ونلم ببيان احوالهِ بعض الالمام على قدر ما يسمح بهِ المقام فانهُ ظهر مع الاسلام واخذ ينمي وينمو ويسير الشعر حتى بلغ ما شاء الله ان يبلغ . فالذي نراهُ ان لهُ طورين احدهما نسميهِ طور النقد المعنوي والثاني نسميهِ طور النقد البلاغي

ونريد بالاول محاسبة الشعراء على الخطأ في المعنى ومؤاخذتهم بتكلب الحق وتخطي الصدق ومخالفة عرف جمهورهم في ما جرت بهِ العادة بينهم وسار عليهِ الادب كل ذلك في المعنى دون اللفظ والاسلوب البلاغي وهذا الطور يبدأ منذ ظهور الاسلام الى صدر من العصر العباسي وهو النقد العربي البعيد عن التكلف وذلك قبل ان تدون العلوم وتصير صناعة . ونرى ان اول نقد وجهت سهامهُ نحو الشعر وفرع بهِ الشعراء على تجنبهم الحق ومخالفتهم الصدق قولهُ تعالى « والشعراء يتبعهم الغاوون الم تر انهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون »

واذا كنا نبصر ما للشعر من التأثير على القلوب والسلطان على النفوس والتلاعب بالعقول وامتلاك اعنة الاهواء وتقليبه الالباب كما شاء حتى انهُ ليفعل ما لا تفعل الخمر ويبلغ ما لا يبلغهُ السحر اذا كان الشعر كذلك فما احرى بنا ان نقفهُ على الحث على الفضائل والترغيب في المكارم وصرف الناس الى محاسن الخلال وحميد الخصال ومجيد الافعال . وما اهدى سلفنا في صدر الاسلام الى الصواب واعلمهم بطرق الخير وسبل الفضل اذ لم يقدموا من الشعراء الا من قال كلمة حق اودعا الى خير ورغب في

فضيلة كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ انهُ قال لوقد غطفان من الذي يقول

حلفت فلم اترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا ابنة بني ذبيان قال فهم فمن الذي يقول هذا الشعر

اتيتك عارياً خلقا ثيابي على وجل تظن بي الظنون

فالفيت الامانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون

قالوا هو النابغة قال هو اشعر شعرائكم

وكان عمر رضي الله عنهُ يعجب من قول زهير

فان الحق مقطعهُ ثلاث يمين او نفار او جلاء

لما فيهِ من المعرفة بتفاصيل الحقوق

ولم تكن للشعر تلك المكانة الرفيعة في نفوس العرب الا لما فيهِ من الحث على الفضيلة كما شهدت بذلك اخبارهم وورد بذلك كلامهم فقد روي ان زياداً بعث بولدهِ الى معاوية فسألهُ عن فنون من العلم فوجدهُ عالماً بكل ما سألهُ ثم استنشدهُ الشعر فقال لم ار منهُ شيئاً فكتب الى زياد ما منعك ان ترويه الشعر . فوالله ان كان العاق يرويه فيبرّ وان كان البخيل يرويه فيسخو وان كان الجبان يرويه فيقاتل

وقالت عائشة رضي الله عنها روّوا اولادكم الشعر تعذب السنتهم

وقال عبدالملك بن مروان لمؤدب ولده روّهم الشعر يمجدوا وينجدوا

وكم للشعر من اعانة على مكرمة وترغيب في محمدة وارشاد الى سياسة صائبة وتدبير محكم ولله در ابي تمام حيث يقول

ولولا خلال سنها الشعر ما درى بغاة الندى من اين تؤتى المكارم

وهذا عمر رضي الله عنهُ على علمهِ وفقههِ وسياستهِ نبههُ على مشاطرة عمالهِ قول شاعر فقد روى ان مالك بن انس سئل عن ذلك فقال اموال كثيرة ظهرت عليهم فكتب الى عمر بعض الشعراء

تحج اذا حجوا وتغزو اذا غزوا فأموالهم وفر ولسنا بذي وفر

اذا التاجر الهندي جاء بفارة من المسك راحت في مفارقهم تجري

فدونك مال الله حيث وجدتهُ سيرضون ان شاطرتهم منك بالشطر

قال شاطرهم عمر اموالهم

وكان عليٌّ رضي الله عنهُ ينشد اذا برز للقتال

اي يوميَّ من الموت أفر يوم لا يقدر ام يوم قدر
يوم لا تقدر لا ارهبهُ ومن المقدور لاينجي الحذر

فعلى النقاد أن يصرفوا الشعراء الى التغني بالفضائل والحث عليها وان ينكروا عليهم قول الزور وتزيين الباطل والفجور

ولنرجع الى القول في طور النقد المعنوي فنقول

شغل العرب قليلاً عن الشعر اول الاسلام لما بهرهم من بلاغة القرآن وبديع اسلوبهِ وبراعة كلهِ وعجيب حكمهِ وشغلوا ايضاً بالغزوات والفتوحات ولما ثبتت لهم الدولة وتوطدت دعائم الملك والخلافة ودوخوا البلاد وفتحوا الامصار واستراحوا قليلاً من الجهاد والفتوح . حنوا الى الشعر الذي يذيع مفاخرهم ويقيد مآثرهم ويتعزى بهِ المحب الواله والمفارق الواجد فبرع منهم في الشعر كثير ونبغ عدد عظيم وكان في مقدمة الشعراء المفلقين والسابقين المبرزين الذين يسحرون العقول بغزلهم ويصلون الى حبات القلوب بنسيبهم كثير من الاشراف والفقهاء فمن الاشراف عمر بن ابي ربيعة وهو اشهر من ان يعرف واجل من ان يوصف

ومن الفقهاء عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود وهو أحد فقهاء المدينة السبعة وكان من ارق الناس واعذبهم غزلاً فمن شعرهِ

كتمت الهوى حتى اضرَّ بك الكتمُ ولامك اقوام ولومهم ظلمُ
ونمَّ عليك الكاشحون وقبل ذا عليك الهوى قد نمَّ لو تنفع النم
فيا من لنفس لا تموت فينقضي عناها ولا تحيا حياة لها طعم
تجنبت اتيان الحبيب تأثُّماً الا ان هجران الحبيب هو الاثم

ومنهم عروة بن اذينة وكان من ثقات اصحاب الحديث روى عنهُ مالك رضي الله عنهُ ومن شعره قولهُ

قالت وابثتها وجدي وبحت بهِ قد كنت عندي تحب السر فاستتر
ألستَ تبصر من حولي فقلت لها غطى هواك وما القى على بصري

وقد ظهر النقد في هذا العصر مع ظهور الشعر حتى كان الخلفاء ينقدون . ومن ابصرهم واشهرهم في النقد عبد الملك بن مروان رحمهُ الله فمن عجيب نقدهِ ولطيفهِ

الدال على نفاذ بصره وقوة فطنته ورقة طبعه وحسن ذوقه ما روي عنهُ انهُ مرّ ليلة وعندهُ كثيّر عزّة فقال لهُ انشدني بعض ما قلت في عزة فانشدهُ

هممت ولم أفعل وكدت وليتها حياء ومثلي بالحياء حقيق

فقال لهُ عبد الملك اما والله لولا بيت انشدتنيه قبل هذا لحرمتك جائزتك قال ولمَ يا امير المؤمنين قال لانك شركتها معك في الهيبة ثم استأثرت بالحياء دونها

قال كثير فأي بيت عفوت به عني يا امير المؤمنين قال قولك

دعوني لا اريد بها سواها دعوني هائماً فيمن يهيم

وما أثر عن عبد الملك في النقد كثير

ومن النقد في ذلك العصر ما روي ان عمر بن ابي ربيعة قدم المدينة فاقبل اليهِ الاخوص ونُصيب فجعلوا يتحدثون ثم سألها عمر عن كثيّر عزة فقالوا هو ههنا قريب قال فلو ارسلنا اليهِ قالوا هو اشد مأتى من ذلك قال فاذهبا بنا اليهِ فقاموا نحوهُ فالفوهُ جالساً في خيمة لهُ فجلسوا واخذوا في الحديث ساعة فالتفت الى عمر بن ابي ربيعة فقال انك لشاعر لولا انك تشبب بالمرأة ثم تدعها وتشبب بنفسك اخبرني عن قولك

ثم استطيرت تشتد في أثري تسأل اهل الطواف عن عمر

والله لو وصفت بهذا هزة اهلك لكان كثيراً الا قلت كما قال هذا يعني الاخوص

ادور ولولا ان ارى ام جعفر بابياتكم ما درت حيث ادور

وما كنت زواراً ولكن ذا الهوى وان لم يزر لا بدّ انهُ سيزور

قال فانكسرت نخوة عمر بن ابي ربيعة ودخلت الاخوص زهوة

ثم التفت الى الاخوص فقال اخبرني عن قولك

قال تصلي اصلك وان تبيني بهجر بعد وصلك ما ابالي

اما والله لو كنت حرًّا لباليت. الا قلت كما قال هذا الاسود يعني نصيباً

بزينب ألمم قبل ان يرحل الركب وقل ان عللينا فما ملّك القلب

قال فانكسر الاخوص ودخلت نصيباً زهوة

ثم التفت الى نصيب فقال اخبرني عن قولك

اهيم بدعد ما حييت فان امت فوا كبدي من ذا يهيم بها بعدي

هنك ويحك من يهيم بها بعدك!

ومن ذلك ما روى صاحب العقد عن الهيثم بن عدي قال دخل رجل من اصحاب الوليد بن عبد الملك عليه فقال يا امير المؤمنين لقد رأيت ببابك جماعة من الشعراء لا احسبهم اجتمعوا ببابك احد من الخلفاء فلو اذنت لهم حتى ينشدوك. فأذن لهم وكان فيهم الفرزدق وجرير والاخطل والاشهب وترك البعيث فلم يأذن لهُ. فقال الرجل المستأذن لهم لو اذنت للبعيث . فلم يأذن لهُ وقال انهُ ليس كهؤلاء انما قال من الشعر يسيراً. قال والله ياامير المؤمنين انهُ لشاعر. فأذن لهُ فلما مثل بين يديه قال أن هؤلاء ومن ببابك قد ظنوا انك انما اذنت لهم دوني لفضل لهم عليّ. قال او لست تعلم ذلك. قال لا والله ولا علمهُ الله لي. قال فأنشدني من شعرك. قال اما والله حتى انشدك من شعر كل رجل منهم ما يفضحهُ . فاقبل على الفرزدق فقال قال هذا الشيخ الاحمق لعبد بني كليب

بأي وشاة ياجرير ومائح تدليت في حومات تلك الغماغم

فجعلهُ يتدلى عليه وعلى قومه من علٍ وانما يأتيه من تحته لو كان يعقل وقد قال هذا كلب بني كليب

لقومي احمى للحقيقة منكم واضرَبُ بالجبار والنقع ساطع
واوثق عند المردفات عشية لحاقاً اذا ما جرد السيف لامع

فجعل لسانهُ لا يثقن بلحاقه الا عشية وقال هذا النصراني ومدح رجلاً يسمى قينا فهجاهُ ولم يشعر

قد كنت احسبهُ قينا وانبؤهُ فالآن طيّر عن اثوابه الشرر

ثم نقد الاشهب وانشد الوليد من شعره فاعجبهُ ووصلهُ وانصرف

وعلى هذا المنوال كان النقد في هذا الطور قلما يتعدى المعنى . والذي يظهر لي ان السبب في ذلك ان النقد يتبع الخطأ دائماً ولم تكن السليقة العربية قد فسدت في هذه العصور فيعرض الخطأ في اللفظ واللغة وكان الشعراء مطبوعين اذ ذاك فسلموا من التكلف الذي يعرض بسببه الخطأ في الاسلوب البلاغي فلم يوجد النقد فيه ولا في اللفظ كثيراً والله اعلم . ولقد بقي القول في الطور الثاني للنقد وهو طور النقد البلاغي

يافا عبد الله القلقيلي